قال ابن مسعود وأبو هريرة إذا كانت البطائن التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهائر. وقيل لسعيد بن جبير البطائن من إستبرق فما الظواهر قال هذا مما قال الله فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. وقال ابن عباس إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله. قال القرطبي وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ظواهرها نور يتلألأ. وعن الحسن البطائن هي الظهائر وهو قول الفراء وروي عن قتادة والعرب تقول للبطن ظهرا فيقولون هذا بطن السماء وظهر الأرض. وقال الفراء قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لأن كل واحد منهما يكون وجها والعرب تقول هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذي تراه. وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا وقالوا لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا ولي كل واحد منهما قوما كالحائط بينك وبين قوم وعلى ذلك أمر السماء. وقال ابن عباس في وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر.

فصل

قال ابن الخطيب الإستبرق معرب وهو الديباج الثخين وكان الديباج بسبب أن العرب لم يكن عندهم ذلك إلا من العجم تصرفوا فيه وهو أن أصله بالفارسية ستبرك بمعنى ثخين فزادوا في أوله همزة وبدلوا الكاف قافا. أما الهمزة فلأن حركات أوائل الكلم في لسان العجم غير مبينة في كثير من المواضع فصارت كالسكون فأثبتوا فيه همزة كما يجتلبون همزة الوصل عند سكون أول الكلمة ثم إن البعض جعلوها همزة وصل فقالوا من استبرق والأكثرون جعلوها همزة قطع لأن أول الكلمة في الأصل متحرك لكن بحركة فاسدة فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة وتمكنهم من تسكين الأول لأن عند فساد الحركة العود إلى السكون أقرب وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن ولا يبدل حركة بحركة. وأما القاف فلأنهم لو أرادوا إطباق كونها فارسية أو عجمية فاستعملوا منها الكاف التي هي حرف تشبيه وعلى لسان العرب في أواخر الكلم للخطاب لو تركت الكاف لاشتبه ستبر وعلك إذا ألحقت كاف الخطاب بها فلو تركت الكاف كافا ولا ألحقت الهمزة بأولها. وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربيا لأن العربي ما نطقت به العرب واضعا واستعمالا من لغة غيرها وذلك كله سهل عليهم وبه يحصل الإعجاز بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم. وذكر الاتكاء لأنه حال الصحيح الفارغ القلب المتنعم بخلاف المريض والمهموم.

قوله وجنى الجنتين دان مبتدأ وخبر ودان أصله دانو مثل غاز فاعل كإعلاله. وقرأ عيسى بن عمر وجنى بكسر النون وتوجيهها أن يكون أمال الفتحة لأجل الألف ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين وأبقى إمالة النون وقطن كسرة. وقرئ وجنى بكسر الجيم وهي لغة والجنى ما يقطف من الثمار وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض والنقض.

فصل

قال المفسرون الجنى ما يجتنى من الشجر يقال أتانا بجناة طيبة لكل ما يجتنى وثمر جني على فعيل حين يجنى. وقوله دان أي قريب. قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا. وقال قتادة لا يرد يده بعد ولا شوك. قال ابن الخطيب جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها أن الثمرة على رؤوس الشجر في الدنيا بعيدة على الإنسان المتكئ وفي الجنة هو متكئ والثمرة تتدلى إليه. وثانيها في الدنيا يسعى إلى الثمرة ويتحرك إليها وفي الآخرة هي تدنو إليهم وتدور عليهم. وثالثها أن الإنسان في الدنيا إذا قرب من ثمر شجرة بعد عن غيرها

وثمار

وثمار الجنة كلها تدنو إليهم في وقت واحد ومكان واحد.

قوله فيهن قاصرات الطرف. اختلفوا في هذا الضمير فقيل يعود على الجنان فإن قيل كيف تقدم تثنية في قوله فيهما عينان وفيهما من كل فاكهة ثم أتى بضمير جمع فالجواب أن أقل الجمع اثنان على قول وله شواهد تقدم أكثرها أو يقال عائد إلى الجنات المدلول عليها بالجنتين إذ لكل فرد فرد له جنتان فصح أنها جنات كثيرة وإما أن الجنة تشتمل على مجالس وقصور ومنازل فأطلق على كل واحد منها جنة. وقيل يعود على الفرش. قال الزمخشري فيهن أي في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى. قال أبو حيان وفيه بعد وكأن فيه استحسان الوجه الأول وفيه نظر لأن الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ولا يقال في الفراش كذا إلا بتكلف فلذلك جمع الزمخشري مع الفرش غيرها حتى صح له أن يقول فيهن بحرف الظرفية ولأن الحقيقة أن يكون الإنسان على الفرش لأنه مستعل عليها وأما كونه فيها فلا يقال إلا مجازا. وقال الفراء كل موضع في الجنة جنة فلذلك صح أن يقال فيهن. والقاصرات الحابسات الطرف أي يحبسن أعينهن عن غير أزواجهن ومعناه قصرن ألحاظهن على أزواجهن قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وقاصرات الطرف من إضافة اسم الفاعل المنصوب لمحله تخفيفا إذ يقال قصر طرفه على كذا وحذف متعلق القصر للعلم به أي على أزواجهن كما تقدم تقريره. وقيل معناه قاصرات طرف غيرهن عليهن إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفه إلى غيرهن. ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر من طرفت عينه تطرف طرفا يقال ما فيها عين تطرف ثم سميت العين بذلك فأدى عن الواحد والجمع كقولهم قوم عدل وصوم قاله القرطبي. واعلم أن هذا الترتيب في غاية الحسن لأنه بين أولا المسكن وهو الجنة ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والأعين الجارية ثم ذكر المأكول فقال فيهما من كل فاكهة ثم ذكر موضع الراحة بعد الأكل وهو الفرش ثم ذكر ما يكون في الفراش معه. قال ابن الخطيب وقوله قاصرات الطرف لنساء أو أزواج تحذف الموصوف لنكتة وهي أنه تعالى لم يذكرهن باسم الجنس وهو النساء بل بالصفات فقال حور عين كواعب أترابا قاصرات الطرف حور مقصورات ولم يقل نساء عربا ولا نساء قاصرات لوجهين إما على عادة العظماء كبنات الملوك إنما يذكرون بأوصافهن وأما لأنهن لما كملن كأنهن خرجن من جنسهن. وقوله تعالى قاصرات الطرف يدل على عفتهن وعلى حسن المؤمنين في أعينهن فيحببن أزواجهن حبا يشغلهن عن النظر إلى غيرهم ويدل أيضا على الحياء لأن الطرف حركة الجفن والحيية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها.

قوله لم يطمثهن هذه الجملة يجوز أن تكون نعتا لقاصرات لأن إضافتها لفظية كقوله هذا عارض ممطرنا ويا رب غابطنا لو كان يطلبكم وأن تكون حالا لتخصيص النكرة بالإضافة. واختلف في هذا الحرف والذي بعده عن الكسائي فنقل عنه أنه كان يجيز في ضم أيهما شاء القارئ ونقل عنه الدوري ضم الأول فقط ونقل عنه أبو الحارث ضم الثاني فقط وهما لغتان يقال طمثها يطمثها ويطمثها إذا جامعها وروى أبو إسحاق السبيعي قال كنت أصلي خلف أصحاب علي فأسمعهم يقولون لم يطمثهن بالرفع وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله فأسمعهم يقولون بكسر الميم وكان الكسائي يضم إحداهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين. وأصل الطمث

King Saud University
Copyright King Saud University